

بسم الله الرحمن الرحيم

الضوابط المنهجية لفهم السنة

إعداد

د. "محمد عيد" صاحب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،

ويعد:

فلكل علم منهجيته الخاصة التي تحدد صورة التعامل الصحيحة معه، وتضع له من الضوابط ما يؤدي إلى فهمه وحسن الاستفادة منه. وإن من أهم العلوم التي يلزمها ذلك السنة النبوية التي تحتاج إلى منهجية دقيقة في فهمها، واستخراج الفرائد من كنوزها فيما يخدم جانب الأحكام، ومجال الحلال والحرام، وفيما يعالج واقع الأمة في جميع مجالات الحياة، ويوفق العبد إلى الإحسان في الطاعة والعبادة، ويقربه من الخالق سبحانه، وينجيه من سوء العاقبة يوم القيامة.

والأخطاء التي تقع من بعض الناس في مجال السنة، تعود في الكثير منها إلى الانحراف عن المنهجية الصحيحة في التعامل معها وعدم العلم بالضوابط اللازمة لحسن فهمها. ومنشأ الزلل في بعض الاجتهادات المعاصرة يعود إلى عدم مراعاة هذه الضوابط أو بعضها عند دراسة نصوصها. ولهذا ينبغي معرفة هذه الضوابط حتى يفهم العالم والمجتهد مراد النبي ﷺ من غير تقصير أو غلو؛ وحتى لا يُحْمَل الحديث النبوي ما لا يحتمل، ولا يقصر في فهمه عما قصده النبي ﷺ من بيان وهدى وإرشاد.

وهذه الورقة العلمية التي أُقدِّمها في هذا الملتقى، والتي كلفت بإعدادها في وقت متأخر، أتناول فيها أهم الضوابط التي وضعها العلماء لفقه الحديث وفهمه، وأؤكد فيها ضرورة الالتزام بالمنهجية العلمية التي قررها العلماء، وحثوا على التزامها والتقيدها، من أجل الاستفادة من سنة النبي المصطفى ﷺ وإجادة استنباط الأحكام منها.

من الضوابط المنهجية لفهم الحديث وفقهه الآتي:

أولاً

التحقق من ثبوت الحديث

مسألة ثبوت الحديث عن النبي ﷺ تعد أولى الخطوات التي يجب على العالم والدارس التحقق منها، حيث لا يعتمد عند المحدثين إلا الحديث المقبول وهو الحديث الثابت في نسبته إلى رسول الله ﷺ. وأما الحديث الضعيف فهو حديث لا يُلتفت إليه ولا يُعتمد عليه؛ لا في الأحكام ولا في الحلال والحرام. وقد استثنى بعض العلماء الضعيف ضعفاً يسيراً، فأخذوا به في فضائل الأعمال بشروط. ومنهم من اعتمد عليه في الأحكام إذا لم يكن في الباب غيره.

وكان علماء الحديث قد وضعوا القواعد والقوانين للتأكد من ثبوت الحديث عن النبي ﷺ، وجعلوا لذلك أدق الموازين، من أجل الاعتماد على الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ، وما ثمره علوم الحديث إلا تمييز المقبول من المردود من حديث النبي ﷺ.

ويدخل في هذا المطلب التمييز بين درجات الحديث المقبول ومعرفة مرتبة الحديث بين مراتب الحديث الصحيح، حيث يلزم ذلك عند تعارض الأحاديث إذا لم يتمكن العالم من الجمع والتوفيق بينها، وإذا لم يظهر في الأحاديث المتعارضة ناسخ ومنسوخ، كما يلزم ذلك عند الترجيح بين آراء الفقهاء في مسائل الفقه لمعرفة الراجح منها.

ويحسن التأكيد في هذا المقام على ضرورة العناية بمسألة العلل، للتأكد - بعد النظر في روايات الحديث مجتمعة- من خلو الحديث من العلل التي ترد الحديث ولا تجعله صالحاً للعمل والاحتجاج، وبخاصة علل المتن التي تخل بمعناه، وتحرفه عن مقصد الشرع ومراد النبي ﷺ .

ثانياً

جمع ألفاظ الحديث الواحد

لا يكفي الاختصار على لفظ رواية واحدة للحديث، وذلك بسبب تعدد صور الرواية، نحو رواية الحديث بمعناه لا بلفظه، وروايته مختصراً، ورواية جزء منه، وروايته بقصة أو بدون قصة. ولهذا

لا يمكن فهم الحديث فهماً صحيحاً إلا بالنظر في رواياته كلها، وتتبع دلالة هذه الألفاظ مجتمعة. وبعض من أخل بهذا الضابط رد بعض الأحاديث الصحيحة، لقصور فهمه عن إدراك المعنى الصحيح للحديث.

ومثال ذلك: الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت:

(سَحَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ، يُقَالُ لَهُ لَيْبِدُ بْنُ الْأَعْصَمِ^(١)، حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ عِنْدِي، لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: " يَا عَائِشَةُ، أَشَعَرْتِ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ، أَتَانِي رَجُلَانِ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالْآخَرَ عِنْدَ رِجْلِي، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: مَطْبُوبٌ^(٢)، قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَيْبِدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، قَالَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ^(٣)، وَجَفَّ^(٤) طَلْعَ نَخْلَةٍ ذَكَرَ^(٥). قَالَ: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بئرِ ذُرْوَانَ^(٥). فَأَتَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَجَاءَ فَقَالَ: « يَا عَائِشَةُ، كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَاءِ، أَوْ كَأَنَّ رُعُوسَ نَخْلِهَا رُعُوسَ الشَّيَاطِينِ » قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَلَا اسْتَحْرَجْتَهُ؟ قَالَ: « قَدْ عَافَانِي اللَّهُ، فَكْرِهْتُ أَنْ أُتَوَّرَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرًّا » فَأَمَرَ بِهَا فِدْفِنْتُ^(٦).

قال البخاري: «فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَةٍ» يُقَالُ: الْمُشَاطَةُ: مَا يَخْرُجُ مِنَ الشَّعْرِ إِذَا مُشِطَ، وَالْمُشَاقَةُ: مِنْ مُشَاقَةِ الْكَتَّانِ^(٧).

وفي رواية للبخاري بلفظ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَأَحْرَجْتَهُ؟ قَالَ: « لَا، أَمَا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللَّهُ وَشَفَانِي، وَخَشِيتُ أَنْ أُتَوَّرَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُ شَرًّا » وَأَمَرَ بِهَا فِدْفِنْتُ^(٨)).

(١) كان لبيد بن الأعصم وهو من بني زريق حليفاً لليهود

(٢) مطبوب: يعني مسحور

(٣) مشط ومشاطة: المشط والمشاطة: هي الشعر الذي سقط من الرأس واللحية عند التسريح بالمشط.

(٤) جف: طلع: الجف وفي بعض الروايات الجب بالباء، وهما بمعنى واحد، وهو وعاء طلع النخل، وهو الغشاء الذي يكون عليه ويطلق على الذكر والأنثى، فلهذا قيده في الحديث بقوله: (طلع نخلة ذكر).

(٥) بئر ذروان بفتح الذال وسكون الراء: هي بئر لبني زريق بالمدينة.

(٦) صحيح البخاري، الطب، باب السحر، ح 5763، 136/7.

(٧) المصدر السابق نفسه.

(٨) صحيح البخاري، الطب، باب السحر، ح 5766، 138/7.

ورواية مسلم بلفظ: (سَحَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَهُودِيٌّ مِنْ يَهُودِ بَنِي زُرَيْقٍ، يُقَالُ لَهُ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ: قَالَتْ حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ، وَمَا يَفْعَلُهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ، أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ دَعَا، ثُمَّ دَعَا، ثُمَّ قَالَ: " يَا عَائِشَةُ اشْعَرْتِ أَنْ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟ جَاءَنِي رَجُلَانِ فَقَعَدَا أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلَّذِي عِنْدَ رِجْلِي، أَوْ الَّذِي عِنْدَ رِجْلِي لِلَّذِي عِنْدَ رَأْسِي: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، قَالَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، قَالَ: وَجَفَّ طَلْعَةٌ ذَكَرٍ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بئرِ ذِي أَرْوَانَ " قَالَتْ: فَأَتَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَنْاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: « يَا عَائِشَةُ وَاللَّهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَاءِ، وَلَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ » قَالَتْ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أَحْرَقْتَهُ؟ قَالَ: « لَا أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللَّهُ، وَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا، فَأَمَرْتُ بِهَا فُدْفِنْتُ »^(٩).

وفي رواية ابن ماجه لفظ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أَحْرَقْتَهُ؟ قَالَ: « لَا، أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللَّهُ، وَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُ شَرًّا » فَأَمَرَ بِهَا فُدْفِنْتُ)^(١٠).

ولفظ رواية الشافعي: (مَا عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَفْتَانِي فِي أَمْرِ اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ وَقَدْ كَانَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمَكْتُ كَذَا وَكَذَا يُخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيَهُنَّ، أَتَانِي رَجُلَانِ فَجَلَسَا أَحَدُهُمَا عِنْدَ رِجْلِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رَأْسِي فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رِجْلِي لِلَّذِي عِنْدَ رَأْسِي مَا بَالُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ قَالَ وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ قَالَ وَفِيمَ؟ قَالَ: فِي جَوْفِ جَفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرَ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ تَحْتَ رَاعُوفَةٍ أَوْ رَاعُوثَةٍ^(١١) شَكَّ الرَّبِيعُ فِي بئرِ ذُرْوَانَ. قَالَ فَجَاءَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: هَذِهِ الَّتِي أُرِيئُهَا كَأَنَّ رُؤُوسَ نَخْلِهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ، وَكَأَنَّ مَآوِهَا نُقَاعَةُ الْحِنَاءِ فَأَمَرَ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُخْرِجَ)^(١٢).

وفي رواية لأحمد بلفظ: (لَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سِتَّةَ أَشْهُرٍ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي وَلَا يَأْتِي)^(١٣)، فَأَتَاهُ مَلَكَانِ، فَجَلَسَا أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِهِ، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِيهِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: مَا بَالُهُ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، قَالَ: فِيمَ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ فِي جُفِّ طَلْعَةٍ، ذَكَرَ فِي بئرِ

(٩) صحيح مسلم، السلام، باب السحر، ح43، 1719/4.

(١٠) سنن ابن ماجه، الطب، باب السحر، ح2/3545، 1173.

(١١) راعوفة البئر أو راعوثه البئر: هي صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت تكون ناتئة هناك فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقى عليها وپروی.

(١٢) مسند الشافعي: 88/2.

(١٣) يرى أنه يأتي ولا يأتي: أي يخيل إليه أنه يعاشر نساءه وهو لا يعاشرهم.

ذُرْوَانَ تَحْتَ رَعُوفَةٍ، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَوْمِهِ فَقَالَ: " أَيُّ عَائِشَةَ أَلَمْ تَرِي أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيْمَ اسْتَنْقَيْتُهُ، فَأَتَى الْبَيْتَ، فَأَمَرَ بِهِ، فَأُخْرِجَ، فَقَالَ: " هَذِهِ الْبَيْتُ الَّتِي أُرِيْتَهَا، وَاللَّهِ كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَاءِ، وَكَأَنَّ رُعُوسَ نَخْلِهَا رُعُوسُ الشَّيَاطِينِ ". فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لَوْ أَنَّكَ كَأَنَّهَا نَعْنِي أَنْ يَنْتَشِرَ، قَالَ: " أَمَا وَاللَّهِ قَدْ عَافَانِي اللَّهُ، وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أُتِيرَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُ شَرًّا " (١٤).

وفي رواية أخرى لأحمد بلفظ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُحِرَ لَهُ حَتَّى كَانَ يُحَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَصْنَعُ الشَّيْءَ وَلَمْ يَصْنَعْ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ رَأَيْتُهُ يَدْعُو، فَقَالَ: شَعَرْتُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَفْتَانِي فِيْمَا اسْتَنْقَيْتُهُ فِيهِ) (١٥).

ويكفي في هذا المثال ما تم عرضه من ألفاظ لروايات متعددة، حيث نجد فيها ألفاظاً يوضح بعضها بعضاً، ويزيل الإشكال الذي أدى ببعضهم إلى رد الحديث وعدم قبوله.

وكان بعض أهل العلم من المسلمين، وكذلك بعض الطاعنين في الأحاديث الصحيحة من المستغربين، والعقلانيين، وغيرهم قد وجهوا نقداً لهذا الحديث، من جهة أن الحديث يمثل تشكيكاً في الوحي، وأن النبي ﷺ لو سلمنا بهذا الحديث فسيصدق عليه قول المشركين الذي سجله الله تعالى بقوله ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ (١٦)، وقوله ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ (١٧). وذهبوا كذلك إلى أن دعوى السحر تنال من مكانة الوحي لجواز الاختلاط على المسحور. وأن الحديث يتعارض مع قول الله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (١٨).

وهناك شبهات أخرى وردت على الحديث لم أذكرها لأن المقام لا يحتمل استقصاءها، والذي يعيننا في هذا المقام هو الإشارة التي تخدم الورقة، والتي توضح أهمية جمع الألفاظ للحديث الواحد من أجل بيان معناه، ومن أجل فهم المراد منه.

وأول شيء يستوقفنا في روايات الحديث المذكورة تعدد الألفاظ التي توضح لنا موضوع الحديث ومضمونه والتي نستخلصها من مجموع الروايات، وهي على النحو الآتي:

(١٤) مسند أحمد، ح 24347، 40 / 405.

(١٥) مسند أحمد، ح 24650، 41 / 194.

(١٦) آية 47 / الإسراء.

(١٧) آية 8 / الفرقان.

(١٨) آية 67 / المائدة.

1- أثر سحر لبيد كان في دائرة التخيل ولم يكن في دائرة أخرى. حيث إن السحر له صور كثيرة وأشكال عديدة.

2- التخيل الذي حصل للنبي ﷺ كان محصوراً في العلاقة الزوجية ولم يكن في شيء آخر، كما الأمر بقي داخل بيوته ولم يتجاوز حجات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، لأن الصحابة رضي الله عنهم لم يلحظوا عليه تغيراً، ولم ينكروا عليه شيئاً.

وقد ورد ما يخص التخيل بألفاظ متعددة (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ)، و (يَصْنَعُ الشَّيْءَ وَلَمْ يَصْنَعْ)، و (يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي وَلَا يَأْتِي)، و (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي النَّسَاءَ وَلَا يَأْتِيهِنَّ) . وقد وضحت رواية الشافعي أن الذي كان يتخيل النبي ﷺ فعله أو صنعه أو إتيانه هو معاشرته نسائه وليس أمراً آخر.

3- أثر السحر على الجانب البشري ولم يؤثر على جانب النبوة والوحي، كما أنه لم يؤثر على وعيه وإدراكه عليه الصلاة والسلام. وألفاظ الحديث توضح ذلك، وتظهر بقوله ﷺ: (حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ عِنْدِي، لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: " يَا عَائِشَةُ، أَشَعْرَتِ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ)، و (حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ، أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ دَعَا، ثُمَّ دَعَا)، و (أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللَّهُ وَشَفَانِي). فالذي يدعو ربه ويزيد في دعائه، يكون واعياً ومدركاً لما يقول ولا يدل فعله هذا على فقد الوعي، وانقطاعه عن خالقه. ومما يؤكد وعيه قوله (عافاني الله وشفاني). وبينت إحدى الروايات عند الإمام أحمد أن الله تعالى أفتاه في رؤيا منامية: (فَاسْتَفْتَيْتَ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ نَوْمِهِ فَقَالَ: أَيُّ عَائِشَةَ أَلَمْ تَرِي أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ).

4- بينت الروايات مجتمعة أن السحر كان في مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ فِي جُفِّ طَلْعَةٍ، ذَكَرَ فِي بئرِ ذَرْوَانَ تَحْتَ رَعُوقَةِ البئرِ، وأن ماء البئر مثل نقاعة الحناء، وأن نخلها مثل رؤوس الشياطين.

5- يوجد في كتاب الله تعالى ما ينفي شبهات الطاعنين في الحديث ويبين أن السحر لا يؤثر على الوحي ولا على وعي النبي - وإدراكهن، وسيأتي ذلك في الضابط الخامس "فهم النص في ضوء الآيات القرآنية".

6- أكثر الروايات في كتب الحديث على أن النبي ﷺ لم يستخرج السحر من البئر ولم يحرقه، وأنه أمر بها فدفنت.

وأخيراً ليس المقام مقام رد على الشبهات وتفنيدها فلذلك مكان آخر يناقش فيه، وبكفينا في هذه الورقة أن نبين باختصار أهمية جمع ألفاظ الحديث الواحد في توضيح معنى الحديث

وفهمه. وهذا الضابط يمكن أن نجعله تحت مسمى آخر هو فهم الحديث ضمن سياقه الخاص، حيث لا يتضح السياق أحياناً بالصورة المطلوبة إلا بجمع روايات الألفاظ للحديث الواحد.

ثالثاً

جمع روايات الحديث من الطرق المتعددة

المراد بجمع روايات الحديث من الطرق المتعددة، أي جمعها من طرق روايتها من الصحابة إذا تعلقت روايتهم بحادثة معينة، أو قصة واحدة، حيث نجد هذه الروايات مجتمعة تعطي الصورة المتكاملة التي يخلص الدارس منها إلى الفهم الصحيح للحديث، والتي يستطيع بها أن يستخلص الفوائد والأحكام بصورة مرضية؛ لا يبعد فيها عن المعنى الذي يريده النبي ﷺ. ويوضح هذا الضابط المثال الآتي:

روى البخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال: (بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ، فَأَنَاحَهُ فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِيٌّ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الْأَبْيَضُ الْمُتَّكِيُّ. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ أَجَبْتُكَ». فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَأَلْتُكَ فَمَشَدَّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ، فَلَا تَجِدُ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ؟ فَقَالَ: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ» ... فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولٌ مِّنْ وَرَائِي مَن قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامٌ بِنُ نَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرِ) (١٩).

وهذا الحديث بهذا النص استدل به بعض العلماء على طهارة أبوال الإبل وأرواتها. قال ابن حجر في الفتح: "استنبط منه ابن بطالٍ وغيره طهارة أبوال الإبل وأرواتها، إذ لا يؤمن ذلك منه مدة كونه في المسجد، ولم يُكْرَهُ النَّبِيُّ ﷺ، ودلّالته غير واضحة وإنما فيه مجرد احتمال" (٢٠).

وهذا الذي قاله ابن بطالٍ وغيره مبني على ظاهر رواية أنس ﷺ، والاستدلال بظاهر الحديث فيه بعد وفيه خلل منهجي، لأن من تتبع الحديث وخرج الروايات في الموضوع يجد ابن عباس روى حديثاً في الموضوع، ويجد في روايته أن ضمماً ﷺ عقل بعيره على باب المسجد ولم يدخل به إلى داخله.

(١٩) صحيح البخاري، العلم، باب ما جاء في العلم وقوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}، ح63، 1/ 23.

(٢٠) فتح الباري لابن حجر، 1/ 151.

فمن كُرَيْبٍ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَعَثْتُ بَنُو سَعْدِ بْنِ بَكْرِ ضِمَامَ بْنَ ثَعْلَبَةَ وَافِدًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ، وَأَنَاخَ بَعِيرَهُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، ... (٢١).

ويؤكد حصول خلل عند ابن بطال وغيره أن حديث أنس في رواية أخرى جاء بلفظ لا يفيد دخول ضمام بجملة إلى داخل المسجد، ففي شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، جاء حديث عن أنس بلفظ: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُلُوسًا، فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ لَهُ فَأَنَاخَهُ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ ... (٢٢).

وورد في فتح الباري أن حديث أنس رواه أبو نعيم بلفظ: (أَقْبَلَ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ فَأَنَاخَهُ ثُمَّ عَقَلَهُ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ) (٢٣). وعلق ابن حجر فقال: " فَهَذَا السِّيَاقُ يُدَلُّ عَلَى أَنَّهُ مَا دَخَلَ بِهِ الْمَسْجِدَ " (٢٤).

وهكذا نجد الحكم الذي استنبطه ابن بطال رحمه الله وغيره؛ فيه مجانبة للصواب وفيه بعد، وسبب هذا كله عدم متابعة الحديث في ألفاظه، وترك الجمع لروايات الحديث.

رابعاً

جمع الروايات في الموضوع الواحد

جمع الروايات في الموضوع الواحد أمر مطلوب، لأن الأحاديث يفسر بعضها بعضاً ويوضح بعضها بعضاً، وبخاصة تلك التي يكون موضوعها واحداً، وهذا الضابط يمكن أن نسميه "فهم الحديث ضمن سياقه العام"، بمعنى أن يفهم الباحث الحديث في ضوء الأحاديث الأخرى التي تتفق معه في الموضوع.

ومن الأمثلة الموضحة لذلك:

(٢١) رواه أبو داود، وأحمد، الدارمي، والطبراني، والحاكم، وغيرهم. واللفظ لأحمد.

انظر: سنن أبي داود، الصلاة، باب ما جاء في المشرك يدخل المسجد، ح 487، 1/ 132؛ مسند أحمد، ح 2380، 4/ 209؛ وسنن الدارمي، الطهارة، باب فرض الوضوء والصلاة، ح 678، 1/ 516؛ والمعجم الكبير للطبراني، 8/ 305؛ ومستدرك الحاكم، ح 4380، 3/ 55.

(٢٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي، ح 327، 2/ 221.

(٢٣) فتح الباري، 1/ 151.

(٢٤) فتح الباري، 1/ 151.

حديث فوق موسى عين الملك الذي طعن فيه بعضهم قديماً وحديثاً، والذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وفيه يقول: (أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: أُرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ عَيْنَهُ وَقَالَ: ارْجِعْ، فَقُلْ لَهُ: يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَنْ تَوَرَّ فَلَهُ بِكُلِّ مَا عَطَّتْ بِهِ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ، قَالَ: فَالآنَ. فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمِيَةً بِحَجْرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَلَوْ كُنْتُ ثُمَّ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ، إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ، عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ)^(٢٥).

وجاء في رواية مسلم وأحمد وغيرهما لفظ (...، ارجعُ إلى عبدي فقل: الحَيَاةُ تُرِيدُ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَنْ تَوَرَّ، فَمَا تَوَارَتْ يَدُكَ مِنْ شَعْرَةٍ، فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً، قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: ثُمَّ تَمُوتُ، قَالَ: فَالآنَ مِنْ قَرِيبٍ ...)^(٢٦).

وكما يظهر من رواية مسلم ومن وافقه أن الحديث ورد في سياق تخيير موسى عليه السلام بين الحياة والموت، وأن موسى عليه السلام اختار الموت الذي فيه لقاء الله على الحياة، وذلك بعد أن علم أن الذي جاءه في المرة الأولى هو ملك الموت.

وبعد النظر في موضوع الحديث بالمعنى الذي ظهر من رواية مسلم، وبعد البحث في الأحاديث الواردة في موضوع موت الأنبياء عليهم جميعاً الصلاة والسلام وتخييرهم؛ تبين وجود حديثين يرشدان إلى فهم حديث قبض موسى عليه السلام بصورة صحيحة، وهذان الحديثان هما:

الحديث الأول: حديث عائشة رضي الله عنها: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ وَهُوَ صَاحِبٌ: إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ. فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ وَرَأَسُهُ عَلَى فَخْذِي غُشِيَ عَلَيْهِ سَاعَةٌ، ثُمَّ أَفَاقَ فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى السَّقْفِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى.

(٢٥) صحيح البخاري، الجنائز، بَابُ مَنْ أَحَبَّ الدَّفْنَ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ أَوْ نَحْوَهَا، ح 1339، 2/90؛ صحيح مسلم، الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام، ح2372، 4/1842.

(٢٦) صحيح مسلم، الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام، ح2372، 4/1842؛ ومسنَد أحمد، ح8172، 13/506، و ح8616، 14/265.

قُلْتُ: إِذَا لَا يَخْتَارُنَا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا بِهِ، قَالَتْ: فَكَانَتْ تِلْكَ آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمُ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ: اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى (٢٧).

والحديث الثاني: هو حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «إِنَّ عَبْدًا خَيْرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ» فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: فَدَيْتَاكَ بِأَبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَعَجِبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ: انظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ، يُخْبِرُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَبْدِ خَيْرِهِ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْتَاكَ بِأَبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُخَيَّرَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ، ... (٢٨).

ومن خلال النظر في الأحاديث الواردة في موت الأنبياء، تبين أن حديث أبي هريرة رضي الله عنه يوضح تخيير موسى عليه السلام بين الحياة الطويلة أو لقاء الله تعالى بالموت، فاختر موسى عليه السلام، لقاء الله تعالى وقدمه على الحياة الطويلة، وقال: (فَالآنَ) ولم يطلب التأخير لحظة واحدة. وتبين كذلك أن الأمر ليس كما فهمه بعضهم وصوره؛ من أن موسى عليه السلام كره الموت فكيف يكون ذلك من أولي العزم؟ وأن الإنسان لا تخير له في قضاء الله بالموت؟ وأن الملك كيف يخالف أمر الله ويرجع من غير أن يقبض روح موسى عليه السلام؟ إلى غير ذلك من الشبهات التي أثاروها حول الحديث والتي لا تتفق مع معناه وموضوعه.

خامساً

فهم الحديث في ضوء الآيات القرآنية

(٢٧) صحيح البخاري، الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ح 6509، 8/ 106؛ صحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب فضل عائشة رضي الله عنها، ح 2444، 4/ 1894.

(٢٨) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، ح 3904، 5/ 57؛ صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ح 2382، 4/ 1854.

لا يمكن الفصل بين القرآن والسنة من جهة أن كليهما وحي، وأن المعاني فيهما تأتي بصورة متكاملة، وبعض الأحاديث جاءت منققة مع الآيات الكريمة من جهة أن موضوعها العام واحد، ولهذا يمكن فهمها من خلال ما ورد من آيات كريمة تتفق معها في الموضوع.

وقد تقدّم في المطلب الثاني حديث السحر الذي صنعه لبيد بن الأعصم للنبي ﷺ، والذي حمل بعض الناس إلى إنكار الحديث ورده من جهة أن ذلك يشكك في الوحي ويسيء إلى النبي ﷺ الله عليه وسلّم. ولو حاكمنا الحديث إلى ما ورد في القرآن الكريم من موضوع السحر، فإننا نجد أن موسى عليه السلام كان له موقف مع السحرة وما صنعهو حينما وقع التحدي من قبلهم لنبي الله موسى عليه السلام.

ولعل من المناسب أن نذكر بعض الآيات الواردة في قصة موسى عليه السلام مع السحر والسحرة ممّا يوضح لنا ويجلي ما يخص السحر الذي تعرض له النبي ﷺ. يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ ﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاجِرٍ وَلَا يَفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ اتَى﴾ ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ ﴿(٢٩)﴾.

هذه الآيات من سورة طه تبيّن الآتي:

1. خيل لموسى عليه السلام أن حبال السحرة وعصيهم تتحرك كالأفاعي التي تمشي وتسعى. ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا﴾.
2. أثر السحر على موسى عليه السلام بدليل خوفه. ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾.
3. لم يتأثر الوحي بسبب سحر السحرة، وبسبب ما حصل له من تخيل، بدليل أمر الله تعالى لموسى بعدم الخوف، وإلقاء عصاه التي في يده والتي سوف تبطل سحرهم وتكشف ضعفهم.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ۖ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاجِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ ۖ﴾ .

وكما يظهر من الآيات الكريمة فهناك تطابق بين ما حصل للنبي ﷺ من سحر لبيد بن الأعصم، وما حصل لموسى عليه السلام من سحر السحرة. فكلاهما وقع له التخيل من جراء السحر، وكلاهما لم يتأثر لديه جانب الوحي. فالنبي ﷺ دعا ثم دعا ودعا، حتى استجاب له ربه وأفتاه فيما أراه، وموسى عليه السلام لم يتأثر لديه التلقي عن الله وذلك حينما أمره ربه بعدم الخوف وإلقاء العصا التي بيده.

وهكذا يمكننا فهم حديث سحر النبي ﷺ من قبل لبيد بن الأعصم، من حيث إن الذي أثر عليه من السحر هو التخيل في جانب خاص ببشريته ﷺ هو العلاقة الزوجية، ولم يكن له أثر على الوحي ومجال النبوة والرسالة.

سادساً

مراعاة اللغة العربية وأساليبها في فهم الحديث

من ضوابط فهم الحديث مراعاة السياق اللغوي، ومراعاة اللغة العربية، ومراعاة العرف اللغوي السائد وقت صدور الحديث عن النبي ﷺ أو صدوره عن صحابته. وبعض الناس ربما أخطأ فهم الحديث ووجهه على معنى آخر غير معناه المراد؛ بسبب عدم إدراكه للقضايا اللغوية، التي تضبط النص وتوضح معناه.

ومن الأمثلة على ذلك:

حديث عائشة رضي الله عنها الذي ترويه في بدء الوحي، وفيه: (...) حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارٍ جِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، قَالَ: " فَأَخَذَنِي فَعَطَّرَنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَعَطَّرَنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ

أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: أَفْرَأُ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَعَطَّرَنِي النَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ ﴿أَفْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. أَفْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٣٠)... (٣١).

اختلف العلماء في "ما" في قوله ﷺ (مَا أَنَا بِقَارِيٍّ)، فبعضهم قال "ما" هنا نافية، وبعضهم قال هي استفهامية. والصواب أنها استفهامية، لأن الباء لا تدخل على ما الاستفهامية، ولو كانت ما استفهامية، لقال: (ما أنا قارئ؟).

قال القاضي عياض: (ما) هاهنا نافية، وقيل: استفهامية، كأنه قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أي شيء أقرأ؟ وقد ضعّفوا الاستفهام بإدخال الباء، ولو كان استفهاماً لقال: (ما أنا قارئ؟)، وإنما تدخل الباء على ما النافية فتكون الباء تأكيداً للنفي^(٣٢).

وقال ابن حجر: "مَا نَافِيَةٌ؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ اسْتِفْهَامِيَّةً لَمْ يَصْلُحْ دُخُولُ الْبَاءِ، وَإِنْ حُكِيَ عَنِ الْأَخْفَشِ جَوَازُهُ فَهُوَ شَادٌّ، وَالْبَاءُ زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ، أَيَّ مَا أَحْسِنُ الْقِرَاءَةَ"^(٣٣).

وذهب الطيبي إلى أن قوله (ما أنا قارئ) يُفِيدُ النَّفْيَةَ وَالتَّأْكِيدَ، وَالتَّقْدِيرُ لَسْتُ بِقَارِيٍّ الْبَيِّنَةُ^(٣٤).

وأخيراً: هذا ما تم تناوله من ضوابط، وهناك ضوابط أخرى لم تتطرق الورقة المقدمة لها لضيق الوقت، نحو:

- فهم الحديث في ضوء المقاصد الشرعية.
- فهم الحديث في ضوء سبب وروده.
- معرفة الناسخ والمنسوخ من الحديث.
- فهم الحديث في ضوء عمل الصحابة والتابعين

(٣٠) آية 2/ العلق.

(٣١) صحيح البخاري، الوحي، باب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، ح3، 1/ 7؛ وصحيح مسلم، الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ح252، 1/ 139.

(٣٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض، 1/ 482.

(٣٣) فتح الباري لابن حجر، 1/ 24.

(٣٤) فتح الباري لابن حجر، 1/ 24.

وفي الختام:

يجب على أهل العلم وطلّبه أن يحسنوا التعامل مع السنة النبوية بالتزام الضوابط التي وضعها العلماء بقصد الاستفادة منها وإحسان التعامل معها عند استخراج معانيها واستنباط الأحكام منها.

والحمد لله رب العالمين